

البعد القومي في كتاب عيون البصائر للإمام محمد البشير الإبراهيمي

The National Dimension in the Book "Oyoun EL-Basair" by the
Imam Mohammed El-Bachir El-Ibrahimi

ط.د/ زهيرة حمادي

جامعة امحمد بوقرة - بومرداس (الجزائر)

z.hamadi@univ-boumerdes.dz

تاريخ القبول: 2021/09/23

تاريخ الإرسال: 2021/09/06

ملخص:

تجتمع عدّة عوامل، اجتماعية، وسياسية، وثقافية، تشترك وتتضافر مع مقومات الهوية من وطن واحد، ولغة، ودين، ومصير مشترك، لتكوّن لنا مفهوما قاعديا للمواطنة، ولا يمكن أن نجد أعمالا تجسد لنا قيم المواطنة على أرض الواقع خير مما قام به العلامة الجزائري البشير الإبراهيمي، الذي تميز بموسوعية علمه في شتى مناحي الحياة.

ولعل الانتماء الجغرافي والتاريخي للجزائر كبعد قومي، يمثل عاملا هاما من عوامل الهوية الوطنية، سنحاول في هذه الورقة إلقاء نظرة عن مدى حضور قضايا الأمة العربية والإسلامية في مشروع الإمام التحرري، وكذا مدى أهمية الروابط القومية في ترسيخ الهوية الوطنية، من خلال مقالاته في جريدة البصائر، هذه الأخيرة التي كانت أعظم سلاح يؤرق المحتل ويبعثر أوراقه.

الكلمات المفتاحية: المواطنة، الهوية، البعد القومي، عيون البصائر، الإبراهيمي.

Abstract:

Several social, political, and cultural factors, mingle with the identity components of one homeland, language, religion, and a common destiny to form a basic concept of citizenship. We cannot find works that embody the values of citizenship better than what was presented by the Algerian scholar El-Bachir El-Ibrahimi, who was distinguished by the encyclopedia of his knowledge in various aspects of life.

Perhaps the geographical and historical pertinence of Algeria as a national dimension represents an important factor of national identity. In this paper, we try to have a look at the extent of the presence of the issues of the Arab and Islamic nation in the liberation project of the imam, as well as the extent of the importance of national ties in consolidating national identity, through his articles in the newspaper "El-Basair", this latter, which was the greatest weapon to perplex the colonizer and scatter its papers.

Keywords: citizenship, identity, the national dimension, Owoun EL-Basair, El-Ibrahimi.

تمهيد:

تُعَرَّفُ المواطنة في مفهومها البسيط بأنها العلاقة بين المواطن ووطنه، أي علاقة حقٍّ وواجب بين الطرفين، وبالتالي تعني تمتع الفرد بعضوية بلدٍ ما يترتب عليه حصوله على امتيازات عدّة ومشاركته في أمور وطنه بما أنه ينتمي إليه، وتكتمل المواطنة بأداء الفرد لواجباته اتجاه وطنه، من الحفاظ عليه والمساهمة في العمل على رقيه وازدهاره بشقّي السبل كلّ حسب استطاعته ومعرفته، ولعلّ الشعور بالانتماء هو لبُّ الهوية الوطنية وعمقها وأهم مقوّم من مقوماتها، فالعلاقة بين المواطنة والهوية علاقة وطيدة ومتشابكة وكلٌّ منهما يحفظ الآخر ويدعمه.

ولأنّ المستعمر الفرنسي كان كلّ جهده منصبا على هوية الشعب الجزائري محاولا بكل الطرق طمس عوالمها، وتشويه مقوماتها بهدف تسهيل السيطرة على البلاد والعباد، فقد تفتن مناضلو الثورة الجزائرية وقادة المقاومة وعلمائها إلى حيل المستعمر البغيض، فتصدوا له عن طريق تنوير الشعب الجزائري وحثّه على الحفاظ على هويته ووطنه، وكان سبيلهم في ذلك التوجه إلى عالم الصحافة لنشر خطبهم ومقالاتهم، بالإضافة إلى تأسيس مدارس للطلاب الجزائريين داخل الوطن وخارجه، ردا على المدارس الفرنسية التي كانت تضمّ شرا للجزائريين لا خيرا كما كان ظاهرا.

وفي مقدمة هؤلاء المجاهدين العلامة الجزائري الشيخ الإبراهيمي، هذا العالم الفذّ الذي تميز بعلمه الغزير وإحاطته بمعارف كثيرة شملت كل مناحي الحياة، مع فهم عميق للوضع السياسي والاقتصادي العالمي، فكان دوره عظيما في توجيه الثورة الجزائرية ضدّ

المستعمر لصالح الشعب الجزائري، وساهم في تقوية الروابط والحفاظ على دعائم ومقومات الهوية التي كانت مستهدفة بالدرجة الأولى، فاتخذ من الكتابة سلاحا فعالا أوجع المستعمر وضربه في مقتل، فكانت مقالاته وخطبه ذات الرأي السديد، والحجة البليغة، وفصاحة اللسان، وبلاغة الكلمة، وجزالة الأسلوب وأناقته المزيّنة بقاموس قرآني أجدى نفعا وأشدّ وقعا من السيف الحسام.

وتعدّ العلاقات مع الدول المجاورة التي تتشارك في الموقع الجغرافي والتاريخ الوطني، وكذا عوامل أخرى كالدين الواحد واللغة والوضع السياسي والمصير المشترك، عاملا هاما من عوامل الهوية الوطنية متعدّيا بذلك بالضرورة إلى مقومات المواطنة، وبما أنّ الشيخ الإبراهيمي تميز بروحه القومية، وحبّه للأوطان العربية والإسلامية، فقد خصّها بخطبه ومقالاته مادحا وناصحا ومصلحا وموجها، تعبيرا منه عن أهمية القومية في تكاثف الأوطان والحفاظ على أمنها واستقرارها وهويتها، خاصة وأنّها كانت تعاني من الاستعمار نفسه وتكابد من أجل الخلاص منه، ولذلك اخترنا كتاب عيون البصائر لأنّه يحتوي على أهم مقالات الشيخ العلامة، لننظر فيما مدى حضور القضايا العربية والإسلامية في فكره، وكذا ما مدى تأثير هذه العلاقات بين الدول الجارة والشقيقة على الهوية الوطنية.

1) التعريف بكتاب عيون البصائر

كتاب عيون البصائر من أهم آثار الشيخ البشير الإبراهيمي، وهو عبارة عن أهم المقالات وأقواها التي نشرها العلامة الجزائري في جريدة البصائر، التي كان تصدر من قبل جمعية العلماء المسلمين في عهد الاستعمار المدمر، "إذ تُعدّ هذه الجريدة أطول جريدة للعلماء وأعرضها شهرة وأرقاها كتابة، وقد تكون أرقى جريدة عربية بالجزائر في تاريخها الحديث، حيث استقطبت أهم الأعلام الجزائرية وأكبرها شأنا وأرصنها تفكيراً"⁽¹⁾، ويعدّ كتاب عيون البصائر من أهم المؤلفات في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، فهو الجزء الثالث من كتاب آثار الإبراهيمي الذي يتكون من خمسة أجزاء، ويحتوي على العديد من مقالات الشيخ في مختلف القضايا السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والإصلاحية، التي قام بجمعها وتقديمها لنجله طالب الإبراهيمي.

إلا أنّ هذه المقالات لا تمثل إلا النزر القليل مما جادت به قريحة العلامة، حيث يقول نجله طالب الإبراهيمي: لقد أثرت أن أتنازل عن الكثير من النقاط حرصا على الموضوعية هذه الكلمة أو مقالات في هذا الحرص⁽²⁾، والكتاب الذي بين أيدينا هو الجزء الثالث الذي قام بجمعه وتقديمه طالب الإبراهيمي، من 608 صفحة الطبعة الأولى لدار الغرب الإسلامي سنة 1997، ويحتوي على مقدمة الطبعة الثالثة للشيخ عبد الرزاق قسوم، ونجد في هذا الجزء دُررا من مقالات الشيخ التي تُعنى بقضايا الأمة الجزائرية والعربية والإسلامية.

2) دور الصحافة في دعم الحركة التحررية الوطنية:

لا يخفى على متتبعي الحركة الثورية الجزائرية أهمية الصحافة الوطنية في دعم الثورة الجزائرية، وإيصال صوت الشعب إلى المستعمر بالدرجة الأولى وإلى العالم بالدرجة الثانية وكان للصحافة دور مهم في دعم الحركات التحررية ونشر أفكارها الوطنية والإصلاحية، "فقد حظيت الصحافة المكتوبة بمكانة مرموقة لدى جمعية العلماء واكتست أهمية بالغة خاصة منها سنوات العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، وهي الوسيلة الإعلامية الرائجة الاستعمال يومها"⁽³⁾.

لقد قامت جمعية العلماء بقيادة عبد الحميد بن باديس بإصدار العديد من الجرائد والمجلات، أهمها: المنتقد، الشهاب والبصائر، هذه الجرائد التي نالت شهرة واسعة وانتشارا باهرا، أقلق المستعمر فكان كلما يغلق واحدة عوضتها الجمعية بأخرى أقوى منها، وقلق المستعمر من هذه الجرائد كان نظرا لدورها في فضح ممارسات الاستعمار والموالين له من رجال الطرقية والمشعوذين الذين كانوا يسيطرون على الشعب الجزائري بالأعيهم وخرافاتهم فقد ساهمت في تنوير عقول الشعب وشحذ الهمم من أجل التصدي للمستعمر البغيض.

"ولعل ازدهار المقالة الأدبية في الجزائر يُعزى بالدرجة الأولى إلى الصحافة الإصلاحية التي احتضنت هذا الفن وأسهمت في تطوره على أيدي رجال مفكرين وكتاب بارعين، يعد بعضهم في طليعة كتاب العربية في العصر الحديث وفي الرعيل الأول من شيوخها المبرزين كالشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي ملأ الجزائر بمقالاته ذات الأسلوب الأنيق"⁽⁴⁾، فكان للصحافة دور في دعم الحركات التحررية، وآخر في ازدهار الحركة الثقافية في الجزائر والوطن العربي.

3) القضايا القومية في كتاب عيون البصائر:

كان الشيخ على بصيرة بأحوال العالم الإسلامي وبالأوضاع التي كان يعاني منها وكان يعلم أنّ الحل الأمثل لمشاكله يتمثل في التكاتف والتعاون واستغلال العوامل المشتركة الكثيرة بين دوله، والدليل على ذلك العدد الكبير من المقالات التي خصّ بها الإمام الأمة الإسلامية، وفصّل تقريبا في الوضع التاريخي والسياسي لكلّ دولة على حدة، "ومنه يتبين لنا أنّ الشيخ الإبراهيمي يرى أنّ التقهقر الحضاري الذي ميّز العرب والمسلمين في عصره ليس وليد الصدفة، أو أنّه قدر لا حيلة لهم أمامه وإنّما هو نتاج لعوامل وأسباب عديدة تراكمت وتفاعلت عبر القرون"⁽⁵⁾، وكان دائما ما يحث على الوطنية والمواطنة بالجد والعمل وبذل الجهد بإخلاص فيقول: "إنّ الوطنية لعقيلة كرام لا يساق في مهرها بهرج الكلام وكريمة بيت لا تُنال بلو ولا بليت، وإنّ العلم كبير أناس لا يصاحب إلا بضبط الأنفاس"⁽⁶⁾ وفيما يلي سنرصد أهم القضايا العربية التي وردت في مقالاته.

أ - الشمال الإفريقي

لطالما أثّرت مشكلة الأصول العرقية للمنطقة الجغرافية المسماة الشمال الإفريقي، من عرب وأمازيغ وبربر وغيرهم من الأجناس، وكان الاستعمار يسير في هذا الاتجاه ويغذي هذه الأفكار لإثارة النعرات والفتن بين شعوب المنطقة، ولذلك نجد علماء الأمة يحاولون التصدي لهذه العنصرية الهدامة ودائما ما ينادون بضرورة الترفع عن هذه الخلافات، والتأكيد على أنّ الإسلام عزّب المنطقة وأخى بين الأعراق والأصول فيها.

يقول الشيخ الإبراهيمي في مقالة عنونها (بعروبة الشمال الإفريقي): "عروبة الشمال الإفريقي بجميع أجزائه طبيعية كما كانت الأصول التي انحدرت منها الدماء والينابيع التي انفجرت منها الأخلاق والخصائص، والنواحي التي جاءت منها العادات والتقاليد، وهي أثبت أساسا وأقدم عهدا وأصفى عنصرا من إنكليزية الإنكليز وألمانية الألمان"⁽⁷⁾.

وراح الشيخ يفصّل في قضية العروبة في الشمال الإفريقي، وكيف أنّها توطدت هناك بقوة وروحانياتها وسمو أخلاقها، وكان ذلك بفعل يُسر الدين الإسلامي ولطفه الذي أنسى الإنسان والتاريخ برمته أنّ هناك جنسا غير عربي فيقول: كلّ هذه الظروف صيّرت هذا

الشمال عربيا قارّ العروبة على الأسس الثابتة من دين عربي، ولغة عربية، وكتابة عربية وآداب عربية، ومنازع عربية، وتشريع عربي، وجاء التاريخ -وهو الحكم في مثل هذا- فشهد وأدّى، وجاءت الجغرافيا الطبيعية فوصلت هذا الشمال بمنابت العروبة من جزيرة العرب⁽⁸⁾ وما حرص الإمام على عربية الشمال الإفريقي إلا ربطه بامتداده العربي والإسلامي الذي يمثل حصنا رصينا وسندا يقيه من شرور المستعمرين.

ب- المغرب العربي

إذا كان العالم العربي يمثل عمق الانتماء للأمة الجزائرية، فإنّ المغرب العربي يمثل الدولة الواحدة والشعب الواحد، فلا يمكن فصل شعبه إلا بالحدود الجغرافية التي وضعها المستعمر الذي عاث في البلاد فسادا وكان ديدنه التفریق والتشتيت، فما يشهد عليه التاريخ من تضامن الشعوب المغاربية ودولها، وقتالها جنبا إلى جنب ضدّ الاستعمار الفرنسي، إلا دليل على قوة الرابط بين هذه الدول، وحس الانتماء إلى وطن واحد بمقومات واحدة.

ويعود الفضل في ذلك إلى علماء الأمة من الجهتين في التوجيه والإرشاد والنصح وتذكير الشعوب بأنّ الأصل واحد والوطن واحد والدين واحد، وحرصهم كذلك على التشجيع والدعم ضدّ المستعمر وفضح حيله ومكره بكلّ الطرق والأساليب، وفيما يلي سنتعرض لبعض ما خاطب به الإمام دول المغرب العربي في كتاب عيون البصائر.

- المغرب الأقصى: توجه الشيخ بخطابه إلى المغرب الأقصى في عدة مناسبات وعدة مواضيع، فهناك مقالة موجهة إليه بصفة خاصة، وأخرى مشتركة مع مقالات تتحدث عن مواضيع تهم المغرب العربي بصفته يعاني من المستعمر نفسه، لقد كتب في مقالة بعنوان (عيد العرش المحمدي العلوي) بمناسبة عيد العرش الملكي يناقش قضية الاحتفال بهذا العيد، لكنه لم ينكر عليهم الاحتفال بذاته ولكنه ينتقد طريقة الاحتفال المنافية لأخلاق الإسلام وضوابطه.

بدأ مقالته بمدح لملك المغرب، ولعيده المجيد، وتاريخه العظيم، وأصله الشريف فيقول: وذكريات من المجد التليد تُثار، وآفاق من الفخر الطريف تنار، وسماوات من مخايل البطولة تشهر، وصفحات من تاريخ العظمة تنشر، ولحات من الشرق العلوي الفاطمي تشع فتشيع⁽⁹⁾، ويواصل ذكر محاسن العرش المغربي ودوره في الحفاظ على الأمة الإسلامية فيقول:

ومن حكم الله في هذا العرش أنه لم يزل حارسا للغة الضاد من الأضداد، حاميا للدين من المعتدين، ولم تزل في مقتعديه أمثال مضروبة في النضح عن الإسلام والعروبة، اختلفت بها الأنساب بين يعرب ومازيغ، ولم تختلف بهم الأسباب في رعاية العلم وتقدير البيان⁽¹⁰⁾.

ثم عرج على طريقة الاحتفال بهذا العيد التي اتّسمت باللهو والمجون ومخالفة الدين فيقول: ولا زلنا ننكر على المسلمين في زمننا هذا إقامتهم لهذه الاحتفالات، ونعدّها عليهم في باب الجحانة واللهو، ونقول إنّ معظمها محاكاة لا تأتي بفائدة، وتقليد للأقوياء لا يعود بعائدة، وأنها تتنافى مع الجدّ والشهامة⁽¹¹⁾، ويختتم مقاله بالنصح الكريم للشعب المغربي بضرورة الالتفاف بملكهم، ودعمه وأن يكونوا صفا واحدا بجنبه والذود عن وطنهم ضدّ كل معتد قريبا كان أو بعيد.

وتوجه الإمام بقصيدة إلى المغرب الأقصى تحت عنوان: سكّث... وقلّث...هدية إلى حماة العروبة بالمغرب الأقصى فيقول:

بنصرة إخوان وغوث أقارب	فيا نفس لا يقعد بك العجز وانهضي
رمى كلّ ذود في البلاد بخارب	حرام قعود الحر عن ذود معتد
رمى كلّ جنب للعباد بضارب ⁽¹²⁾	وبسّل سكوت الحر عن عسف ظالم

وتطرق الشيخ إلى قضية المدارس الفرنسية التي أنشئت في مستعمراتها بهدف توجيهها فكريا لصالح المستعمر، هذه المدارس التي كانت كما يقول الشيخ لا تجرّي على منهاج علمي يعود بالفائدة على الطلاب وإنما تسير على منهاج الطريقة المنحرفة فيقول: هذه المدرسة الاستعمارية تهيمّ تلامذتها أو مريديها للشر، وتروّضهم عليه في حال تطول قليلا أو تقصر جدا، على نسبة استعداد التلميذ، وإمّا تروّض نفوسهم على الشر بالجملة⁽¹³⁾، وخصّ بالذكر أحد تلامذة هذه المدارس من المغرب فقال: من تلامذة هذه المدرسة الاستعمارية النجباء المقدمين تلميذ بالمغرب الأقصى⁽¹⁴⁾، وقد أخذ الشيخ هذا التلميذ كمثال، ولكن الأمر نفسه بالنسبة لهذه المدارس في جميع دول المغرب التي ترزخ تحت المستعمر الفرنسي وهذا ما يؤكد أنّ القضية واحدة والوطن واحد والشعب واحد.

- **تونس:** كان الإبراهيمي على علاقة كبيرة بجامع الزيتونة المشهور في الجارة تونس وكان على اطلاع كبير بما يقدمه هذا الصرح العلمي للطلاب العرب والمسلمين، وخاصة الجزائريين منهم فكان يقوم بتشجيعهم على طلب العلم، وكان يتابع مساهمهم بأهمية بالغة، حيث "ترجح المصادر التاريخية أنّ تأسيس جمعية العلماء المسلمين كان وراء تشجيع الطلبة الجزائريين للالتحاق بالحركة التعليمية في تونس، وهذا منذ زيارة الإبراهيمي (1965-1989) لتونس في أواخر سنة 1934، الذي أوصى بضرورة تأسيس هيئة إدارية لجمعية الطلبة الزيتونيين"⁽¹⁵⁾.

وعندما حدثت أزمة في الجامعة وقام الطلبة بإضراب يطالبون فيه بالإصلاح، هذا الإضراب الذي نظمته "منظمة صوت الطالب الزيتوني، وكان ذلك في شباط/فبراير 1950 وكانت منظمة فرع من فروع جامعة الزيتونة ومن أبرز مطالبها التي أوردتها فيما عرف بـ الدستور الزيتوني الجامع، إصلاح برامج التعليم الزيتوني عبر إدخال مواد عصرية وتدريس اللغات الأجنبية"،⁽¹⁶⁾ لم يفوّت الإمام هذه الحادثة، وأدلى بدلوه بمقالة بعنوان (إضراب التلامذة الزيتونيين) يقول فيها: مازلنا نربأ بجامعتنا -أو مجوامعنا- التاريخية أن تبقى جارية على التقليد البالي في مناهجها وكتبها، وأن ترضى لنفسها هذا الجفاف في الزمان الممرع وهذا التمطي في العصر المسرع، ومازلنا نرجو لها -مخلصين- إصلاحا شاملا يعقبه صلاح كامل، يتبدئ ذلك الإصلاح من الكتب وينتهي إلى العقول⁽¹⁷⁾، في تأييد واضح منه لإضراب الطلبة ووعي منه لما يدور وسط الجامعة رغم بعده عنها.

ويواصل الإمام تشجيعه للطلبة المضربين قائلا: أضربتم فسخرها وقالو عادة ونوية، ثم أصرتم فتماروا وقالوا: رعونة من ورائها معونة، ثم تحدّيتهم فصدّقوا ولئن زدتم ليقولن: آمنا أنه لا إله إلا الذي خلق الزيتونة شجرة مباركة والزيتونيين رجالا مباركين⁽¹⁸⁾، شاكرا لهم إصرارهم على موقفهم حتى الوصول إلى مبتغاهم، ومذكرا إياهم باسم جامعتهم المباركة المستمد من بركة القرآن الكريم، ويحذّره بعد ذلك من الأيدي الفاسدة التي قد تذهب بمساعيهم إلى طريق خاطئ فيقول: مازلنا نتبع أخباركم باهتمام ونعوّذكم بالله وبالمعوّذات من كلامه أن تكون من ورائكم يد تحرككم للمساعي الضائعة، أو تكيد لكم من حيث لا تشعرون، فقد عوّدنا هذا الزمان الفاسد عادات مرذولة في استغلال الشباب وتصريفهم في غير الطرق التي خلقوا لها⁽¹⁹⁾، وذلك وعيا منه لأساليب وطرق المستعمر ومن يواليه في إخماد العزائم والتصدي لما هو في مصلحة الوطن والمواطن.

ويقول في آخر المقال: أيها الأبناء الأعزاء: لستم منّا بموضع الهوان حتى ننساكم وليس شأنكم عندنا بالهين حتى لا نفكر فيه وليس مستقبلكم في نظرنا بالرخيص حتى لا نغالي فيه، إنّما أنتم عندنا أحجار بناء المستقبل المجيد⁽²⁰⁾، يطمئن الإمام الطلبة بأنّه لم ولن ينساهم رغم بعد المسافة بينهم واشتغاله بقضايا وطنه الذي يؤرقه المستعمر البغيض، وبأنّ قيمتهم كبيرة وشأنهم عظيم بالنسبة له ولوطنهم الذي يحتاجهم وأنهم أمل المستقبل الزاهر والمجيد لأوطانهم، ليثبت أنه قائد عظيم للأمة الإسلامية جمعاء وليس لوطنه الجزائر فحسب.

- ليبيا: ليبيا هي الأخرى جزء لا يتجزأ وقطعة غالية من المغرب العربي الكبير، عانت كبقية دول المنطقة من ويلات الاستعمار الذي كان مختلفا في الاسم متشابها في الأفعال والطباع، فديدن المستعمر أينما حل الخراب والفساد، لم ينس الشيخ ليبيا وكانت لها حصّة من اهتمامه وحبّه ونصحه الكريم، فخصّها بمقالين الأول بعنوان (ليبيا موقعها منا)، والثاني بعنوان (ليبيا ماذا يراد بها؟).

تحدث الإمام في المقال الأول عن مكانة ليبيا كجزء من الوطن العربي الكبير، فقام أولا بوصف أرضها الطيبة التي تميزت بجمال ساحر، ثم قام بجولة تاريخية فيها بدءا بما مرّ عليها من أجناس وحضارات، والفاتحين الذين حملوا لها الدين الإسلامي، ثم الرحالة الذين مرّوا على أرضها وقام بذكر علمائها وشعرائها، فيقول: ليبيا -بأجزائها الطبيعية- قطعة ثمينة من وطن العروبة الأكبر، ومقل حصين من معقل الإسلام الباذخة، مكتنف الشمال والجنوب بجمالين من مياه البحر الأبيض... فهي رقعة من صنع الله مطرزة الحواشي بما يسحر الأبواب، ويفتن النفوس ويستهوئ الأفتدة ويذكر بالعزة⁽²¹⁾، لئنم الشيخ عن دراية واسعة واطلاع على ثقافة وتاريخ الأمة الإسلامية.

ويضيف قائلا: وإخواننا الليبيين -أو الطرابلسيين كما نسميهم- علينا حق الدين وحق اللغة، وحق الجنس وحق الجوار، وحق الاشتراك في الآلام والحن وفي الآمال المقترحة على الزمن⁽²²⁾، ليعبر عن حبّه لهذه البلاد وحسه الانتمائي لكل قطعة عربية وإسلامية، ولا يخل عليهم بنصائحه الوجيهة فيقول: وإن هؤلاء الإخوان اليوم في طور امتحان عسير معقد، تتخلله الأهواء والمطامع، ويحيط به الكيد والتعنيت من كلّ جانب، وإنّ نجاحهم فيه يتوقف على جمع الكلمة وتسوية الصف وتوحيد الرأي ومثانة الإيمان بالحق⁽²³⁾، فنصحه

الكرّيم لهم نابع عن حسه الوطني والقومي، وعن فهمه العميق كما قلنا سابقا لكل ظروف الوطن العربي، وما يحاك للعالم بأسره.

أما في المقال الثاني بعنوان: ليبيا، ماذا يراد بها فتطرق الشيخ إلى الأزمة التي مرّت بها ليبيا سنة 1949، عندما صدر مشروع عن الأمم المتحدة يقضي بوصاية بريطانية وإيطالية على ليبيا بدل الاستقلال التام لأراضيها، ولكن الشعب الليبي أحبط هذا القرار بنضاله المستمر وحصلت ليبيا على استقلالها سنة 1952، وفي هذا يقول الشيخ: هذه الكلمة الخاطئة هي "طلب الاستقلال" ومعناها في الواقع طلب الحق من غاصبه، أو طلب الملك من سالبه، ولو كان من طبيعة الغاصب السالب أن يردّ المغصوب فيئة إلى الرشد، وإنابة إلى الله، لرّدّه من غير طلب ولا رفع دعوى ولا إقامة دليل⁽²⁴⁾، حيث يؤكد الشيخ على أنّ ما يأخذ بالقوة لا يسترد إلا بها، وأن الاستقلال لا يطلب وإنما يأخذ ويشكك في نية المعتصب بأن يرد الحق لأصحابه بدون مقابل.

ويؤكد الإمام على عمق الصلة بين الشعبين الجزائري والليبي، وعن دعمهم لهم ومشاركتهم همومهم فيقول: أيها الإخوان الليبيون: إنّ لكم إخوانا يصل بينكم وبينهم الماء والصحراء، ويشرفون عليكم من مخارم هذه السلالة الشاخنة من الأطلس الكبير، وإنّهم يشاركونكم في الشدائد والحن، كما شاركوكم في الألسنة والسحن، وإنّهم يقاسمونكم مرارة الامتحان الذي أنتم فيه⁽²⁵⁾، إيماننا منه بالمصير المشترك والوطن الكبير الذي تجمعهم عوامل عدّة ويتوجب على شعبه الالتحام والتعاقد.

ج- المشرق العربي:

لم يكن تقسيم العالم العربي إلى مشرق ومغرب إلا بداعي الموقع الجغرافي، والمتتبع لتاريخ المنطقة يجد أنّ العلاقات بين المغرب والمشرق ضاربة في غابر الزمن، وأن الشعوب متداخلة الأعراق وزاد من ألفها الدين الإسلامي الذي وصل إلى كل بقاع العالم، ولكن المستعمر في التاريخ الحديث للمنطقة أراد قطع أواصل هذا التقارب وتشيت وتفريق المتجمع ليسهل عليه الامتداد والسيطرة، ولم يخف هذا على العلامة الجزائري الذي سلط الضوء على القضية في مقال بعنوان (أرحام تتعاطف) يقول فيه: طالما نعيننا على المسلمين

خصوصا وعلى الشرقيين عموما هذا التقاطع الذي شئت شملهم، وفرّق جامعتهم، وصيّرههم لقمة سائغة للمستعمرين، وطالما شرحنا للمسلمين أسرار التواصل والتراحم والتقارب، الكامنة في دينهم⁽²⁶⁾، وكأن الشيخ يؤنب الشرقيين على عدم الاستماع للنصح والإرشاد من قبله فأعانوا المستعمر على الوصول لمبتغاه الماكر.

ويواصل قائلا: ومازال الاستعمار يروّض المسلمين الشرقيين على قبول هذه الدسيّة ثم على استحسانها ثم الأخذ بها حتى تتقطعوا في الأرض أمّا ليس منهم الصالحون⁽²⁷⁾، في قراءة سليمة منه لمآرب المستعمر التي وصل إليها بفعل تشتت المسلمين وعدم فطنتهم لحيلة الخبيثة، من أهم القضايا العربية التي تطرق إليها أزمة مصر وقضية العرب والقضية الفلسطينية.

- مصر: دائما ما كانت مصر تمثل الحاضن الأكبر للدول العربية، والشقيقة الكبرى كما تسمى، وهذا نابع عن جهود مصر والقائمين عليها في لم الشمل العربي ومدّ يد العون بالمال والسلاح والرجال للكفاح ضدّ المستعمر بكل أصنافه، فقد كانت مصر قبلة للمستضعفين في أوطانهم وكانت سندا لهم في كل وقت، ومن بين من قصد مصر الشيخ الإبراهيمي نفسه الذي مكث فيها مدة يُسيّر الجمعية من هناك، وقد خصّ مصر بثلاث مقالات، (محنة مصر محنتنا)، (يا مصر)، ومقالة بعنوان (أثر الأزر في النهضة المصرية).

يقول الشيخ: وأنت اليوم قبله المسلمين يولون وجوههم إليك كلّما حز بهم أمر أو حلت بهم معضلة، وينفرون إلى معاهدك يمتارون العلم منها وإلى كتبك يصححون الفكر والرأي عنها، وإلى علمائك يتلقون الفتيا الفاصلة في الدين والدنيا عنهم، فلك - بذلك - عن كلّ مسلم حق، وهذا أوان الحاجة إليه⁽²⁸⁾، وفي تشجيع ودعم للشقيقة مصر في نضالها ضدّ المستعمر البريطاني، يقول الشيخ باسم جمعية العلماء المسلمين، والشعب الجزائري: إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المعبرة عن إحساس الشعب الجزائري كلّّه تأييدها للشعب المصري وتضامنها معه في موقفه الحازم، ولا تصدّها عن أداء واجبات الأخوة هذه الحدود الوهمية التي خطّها الاستعمار بين أجزاء الوطن الواحد⁽²⁹⁾، ففي كلّ مرة يؤكّد الإبراهيمي أنّ الوطن العربي واحد والشعب واحد، ويجب عدم النظر إلى الحدود والفواصل التي وضعها المستعمر في طريق الشعوب.

وفي مقالة بعنوان: أثر الأزهر في النهضة المصرية، يقول الإمام: وما أحوج مصر اليوم إلى علماء من ذلك الطراز، يقولون كلمة الله في السلم فتكون هادية إلى الصلاح، وفي الحرب فتكون قائدة إلى النصر، لأن كلمة الله في لسان العالم الرثائي هي الميزان العادل⁽³⁰⁾، فلا يخفى على أحد دور جامع الأزهر آنذاك في إعلاء كلمة الله، وإصدار الفتاوى الصحيحة دون خوف ونصرة الشعوب المسلمة المضطهدة جميعها وليس الشعب المصري فحسب بالإضافة إلى احتواء طلبة العلم فقد كان صرحا علميا بحق ومنارة من منارات الإسلام.

- فلسطين: كانت ولا تزال القضية الفلسطينية قضية العرب والمسلمين، تعيش في دواخل كل عربي ومسلم تأخذه الحمية على وطنه الكبير، فقد دعمت الدول العربية فلسطين دائما وسعت لتحريرها من قبضة المستعمر الأنجس في العالم، "ويبقى لفلسطين المكانة العلية في النفوس والقلم الرائج بين أنامل ذوي العقول الراححة، والقلوب الناطقة والشعور المتبادل شيخنا أحس بفلسطين وجعل منها جرحه الذي لا يضمده، ونزيفه الذي لا يتوقف ولن يهنئ له بال ولن تطيب له عيشة محال إلا إذا تحقق المنى وبلغ المسعى، وأرجع لفلسطين حقها المهدور"⁽³¹⁾.

لقد أخذت القضية الفلسطينية حصة الأسد من مقالات الإبراهيمي وخطبه، لقد جمع مركز إعلام العرب بالقاهرة هذه المقالات، وطبعها في كتاب تحت عنوان فلسطين ضمن سلسلة تسمى كتاب القدس، بالإضافة إلى عيون البصائر الذي بين أيدينا، و"من خلال الرصد الذي قام به مركز الاعلام العربي لمقالات الابراهيمى وأدبياته عن القضية الفلسطينية في كتاب فلسطين، نجد أن الكتاب يضم 17 مقالا وتصريحا وبيانا تناولت رؤى الإبراهيمي للقضية الفلسطينية من حيث أهميتها لدى العرب والمسلمين ومكانتها لديهم ويمكن تصنيف هذه المقالات في أربعة أقسام:

القسم الأول: عن الاستعمار ودوره في خلق قضية فلسطين.

القسم الثاني: دور العرب والمسلمين في ضياع فلسطين، والواجبات المطلوبة منهم.

القسم الثالث: رؤى الإبراهيمي حول نكبة فلسطين عام 1948.

القسم الرابع: النواحي العلمية في مواقف الإبراهيمي إزاء قضية فلسطين"⁽³²⁾.

بينما توجد في كتاب عيون البصائر حوالي تسع مقالات تُعنى بالقضية الفلسطينية تطرق فيها إلى مواضيع عدّة، منها تصوير الفجيرة التي بيّن فيها ما تعانيها فلسطين، وقام بوصف قرار تقسيمها، ثم تحدث عن علاقة العرب باليهود وعن منطق القوة والضعف بينهم، وتحدث كذلك عن مكانة فلسطين لدى العرب وماذا يريدون لها، وواجباتهم تجاهها وبشكل خاص عرب شمال إفريقيا وحجهم لفلسطين رغم بعد المسافة، وغيرها من المناسبات التي لم ينس فيها الإمام قضيته، قضية العرب والمسلمين فلسطين الجريحة.

خاتمة:

من خلال ما سبق وبعد عرض أهم القضايا القومية والعربية التي تأكد حضورها وبقوة في مشروع الإمام الإبراهيمي الفكري والتحرري، فكلّ القضايا التي تحدّث عنها في مقالاته المرصّعة بأجمل العبارات والأفكار والألفاظ، التي لا يستطيع القارئ أن يتوقف عنها إذا بدأها وهذا لجمال أسلوبها، وقوة حجتها وبلاغتها، كلّ تلك القضايا لا تخرج عن كون الأمة العربية والإسلامية جسد واحد وقلب واحد، وهذا نظرا للعوامل والمقومات المشتركة التي بين شعوبها، والتي حاول الاستعمار مرارا طمسها لعلمه بمدى قوتها وخطورها على مشروعه الاستعماري، فالإمام رحمه الله وطيب ثراه، أخذ على عاتقه التحدث باسم الأمة جمعاء وليس باسم وطنه الجزائر فقط، وهذا نابع عن حبّه لوطنه وحسه بالانتماء إلى وطنه أولا، وإلى أمته العربية والإسلامية ثانيا، وهذا هو لبّ وجوهر المواطنة الصادقة التي تنفع الوطن والمواطن على حدّ سواء.

الهوامش والإحالات

- (1) - أمين معلوف، التنشئة السياسية عند جمعية العلماء المسلمين (1931-1956)، كلية العلوم السياسية والاعلام، جامعة يوسف بن خدة، الجزائر، 2007-2008، ص 150
- (2) - محمد البشير الإبراهيمي، تقديم عيون البصائر، دط، دار الأمة، الجزائر، 2007، ص 9.
- (3) - شهرة شفري، الخطاب الدعوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة، 2008-2009، ص 214.
- (4) - عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931/154)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 88.
- (5) - بشير فايد، قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان دراسة تاريخية وفكرية مقارنة، رسالة دكتوراه، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009، 2010.

- (6) - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج3، ط1، 1997، ص315
- (7) - المصدر نفسه، ص428.
- (8) - المصدر نفسه، ص428.
- (9) - المصدر نفسه، ص396.
- (10) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- (11) - المصدر نفسه، ص397.
- (12) - المصدر نفسه، ص426.
- (13) - المصدر نفسه، ص414.
- (14) - المصدر نفسه، ص415.
- (15) - حنيني هلايلي، اهتمامات جريدة البصائر بقضايا الجزائريين في تونس، مجلة عبد الحميد بن باديس <http://binbqdis.net/archives/8739>، يوم 2021/04/28، 14:10.
- (16) - نائلة حمادي، الجامعة التونسية .. تاريخ من النضال والصراع، <https://www.ultrasawt.com>، يوم 2021/04/27، 06:22.
- (17) - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص409.
- (18) - المصدر نفسه، ص411.
- (19) - المصدر نفسه، ص413.
- (20) - المصدر نفسه، ص413.
- (21) - المصدر نفسه، ص402.
- (22) - المصدر نفسه، ص403.
- (23) - المصدر نفسه، ص403.
- (24) - المصدر نفسه، ص405.
- (25) - المصدر نفسه، ص408.
- (26) - المصدر نفسه، ص422.
- (27) - المصدر نفسه، ص423.
- (28) - المصدر نفسه، ص496.
- (29) - المصدر نفسه، ص492.
- (30) - المصدر نفسه، ص500.
- (31) - سليمة هالة، القضية الفلسطينية في كتاب العلامة الجزائري البشير الإبراهيمي، مجلة دراسات وأبحاث، العدد 23، جوان 2016.
- (32) - أحمد التلاوي، فلسطين في أدبيات علماء الأمة؛ البشير الإبراهيمي أنموذجا، مجلة عبد الحميد بن باديس، www.binbadis.net، 2021/04/9، 22:26.